

من ١٠-١٤ سنة

أئمة الهدى

الشافعي

ناصر السنة



رسمها

عبد المرضي عبيد

كتبها

سلامة محمد سلامة

شركة سفير

محمد، سلامة

أئمة الهدى «الشافعي» / سلامة محمد

١٢ ص، ٢٣ × ٢٣ سم

١- أئمة الهدى «الشافعي»

٢- الأطفال - تعليم

أ- محمد، سلامة ب- العنوان

ديوى/٢٢٩

سفير جميع الحقوق محفوظة لشركة

رقم الإيداع: ١٣٩٥ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي: 7 - 276 - 361 - 977 ISBN :

سَارَتِ الْقَافِلَةُ الصَّغِيرَةُ طَوِيلًا فَوْقَ صَفْحَةِ الْمُرُوجِ الْخَضِرَاءِ الشَّاسِعَةِ الَّتِي بَدَتْ وَكَأَنَّهَا بَحْرٌ مَتَّسِعٌ لَانِهَائِيَّةٌ لَهُ مِنْ الْحَشَائِشِ وَالزَّهْرِ حَتَّى أَصْبَحَتْ عَلَى مَشَارِفِ الصَّحَرَاءِ، فَبَدَأَ التَّعَبُ وَالْإِجْهَادُ يَحِلُّ بِمَنْ فِيهَا، فَتَوَقَّفَ الرُّكْبُ، وَبَدَأَ الْجَمِيعُ يَنْزِلُونَ مِنْ فَوْقِ ظُهُورِ رَوَاحِلِهِمْ، ثُمَّ أَخَذُوا يَتَعَاوَنُونَ فِي نَصَبِ خِيَامِهِمْ لِيَنَالُوا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ قَبْلَ أَنْ يُوَاصِلُوا رِحْلَتَهُمُ الطَّوِيلَةَ عَبْرَ تِلْكَ الصَّحَرَاءِ الْجَرْدَاءِ الْقَاحِلَةِ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ بَدَأَ اللَّيْلُ يَرْخِي سُدُولَهُ عَلَى الْمَكَانِ رُودًا رُودًا، فَقَبَعَ جَمِيعٌ مِنَ فِي الْقَافِلَةِ دَاخِلَ خِيَامِهِمْ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ وَالسُّكُونِ، وَعِنْدَ أَطْرَافِ الْقَافِلَةِ، وَفِي رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْوَادِي كَانَتْ هُنَاكَ خِيَمَةٌ صَغِيرَةٌ تَجْلِسُ أَمَامَهَا امْرَأَةٌ بِجَوَارٍ صَغِيرِهَا الَّذِي تَجَاوَزَ الثَّانِيَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَهِيَ تَشْخَصُ بِبَصَرِهَا نَحْوَ الْأُفُقِ الْبَعِيدِ، وَتَقُولُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ حَزِينٍ:

- يَرْحَمَكَ اللَّهُ يَا زَوْجِي الْحَبِيبُ!! لَمْ يَعُدَّ يَطِيبُ لَنَا الْعَيْشُ فِي «عَزَّة» مِنْ بَعْدِكَ، وَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ أَعُودَ إِلَى «مَكَّةَ» لِيَتَرَبَّى وَلَدُكَ الصَّغِيرُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ مِنْ «بَنِي الْمُطَلِّبِ»، لَقَدْ رَحَلْتُ بِنَا إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ وَرَغْدِ الْعَيْشِ لَكِنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ- عَزَّ وَجَلَّ- كَانَتْ أَسْبَقَ مِنْ أَحْلَامِكَ فَمَتَّ عَلَى أَرْضِهَا، وَدُفِنْتَ فِي تُرَابِهَا!!

وَأَنْخَرَطَتِ الْأُمُّ الْمِسْكِينَةُ فِي بُكَاءٍ طَوِيلٍ وَهِيَ تَسْتَرْجِعُ ذِكْرِيَّاتِ الْمَاضِي الْجَمِيلِ عَلَى أَرْضِ «فَلَسْطِينَ»، وَتِلْكَ السَّنَوَاتِ الْقَلِيلَاتِ الَّتِي قَضَتْهَا هُنَاكَ، وَالَّتِي مَرَّتْ كَأَنَّهَا حُلُمٌ جَمِيلٌ لَكِنَّهُ قَصِيرٌ، وَلَمْ تُفِقِ الْأُمُّ إِلَّا عَلَى صَوْتِ أَحَدِ رِجَالِ الْقَافِلَةِ وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ قَوِيٍّ مُرْتَفِعٍ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ: اسْتَعِدُّوا لِلرَّحِيلِ.. اسْتَعِدُّوا لِلرَّحِيلِ..



انْطَلَقَتِ الْقَافِلَةُ تَقَطُّعَ الصَّحَارَى الشَّاسِعَةِ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ لَاحَتْ مِنْ بَعِيدِ جِبَالٍ «مَكَّةَ» وَعَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ مِنَ الْبُيُوتِ، وَمَعَ غُرُوبِ شَمْسٍ أَحَدِ أَيَّامِ عَامِ (١٥٢) هِجْرِيَّةٍ كَانَتْ الْقَافِلَةُ تَحُطُّ رِحَالَهَا عَلَى أَرْضٍ «مَكَّةَ» الْمُبَارَكَةِ بِسَلَامٍ وَأَمَانٍ.

عَاشَتْ أُمُّ الصَّغِيرِ «مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ» مَعَ أَهْلِ زَوْجِهَا فِي سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ، وَعَكَفَتْ الْأُمُّ عَلَى تَرْبِيَةِ وَلَدِهَا وَرِعَايَتِهِ وَعِنْدَمَا شَبَّ وَلَدُهَا قَلِيلًا أَرْسَلَتْهُ إِلَى مُعَلِّمٍ يُعَلِّمُهُ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ وَيُحَفِّظُهُ الْقُرْآنَ.

تَجَهَّزَ الصَّغِيرُ «مُحَمَّدٌ» لِأَوَّلِ يَوْمٍ فِي الدَّرْسِ، وَأَقْبَلَ عَلَى مُعَلِّمِهِ وَهُوَ لَا تَكَادُ تَحْمِلُهُ قَدَمَاهُ فَلَمَّا اسْتَصْغَرَهُ الْمُعَلِّمُ أَجْلَسَهُ إِلَى جَوَارِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَنْصِتَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْ هُمْ أَكْبَرُ مِنْهُ حَتَّى يَتَعَوَّدَ عَلَى الدِّرَاسَةِ وَالتَّحْصِيلِ، غَيْرَ أَنَّ «الشَّافِعِيَّ» كَانَ ذَا فِطْنَةٍ عَالِيَةٍ وَذَكَاءٍ مُتَقَدِّمٍ فَلَمْ يَكِدْ شَيْخُهُ يَمْلِي عَلَى طُلَابِهِ سُورَةً مِمَّا يَحْفَظُونَهَا إِلَّا وَيَجِدُهُ قَدْ فَهَمَهَا وَحَفِظَهَا بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ، فَأَحَبَّهُ الْمُعَلِّمُ، وَقَرِيبُهُ إِلَيْهِ، وَشَجَّعَهُ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ فِي طَرِيقِهِ؛ فَكَانَ لِذَلِكَ التَّشْجِيعِ أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي نَفْسِهِ فَازْدَادَ نُبُوغُهُ، وَبَرَزَ تَفَوُّقُهُ إِلَى حَدِّ جَعَلَ مُعَلِّمُهُ يَقُولُ لَهُ :

يَا - - يَا بَنِي لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَخُذَ مِنْكَ أَجْرًا نَظِيرَ تَعْلِيمِي لَكَ، وَيَكْفِينِي أَنْ تَخْلُقَنِي فِي مَقَامِي هَذَا إِذَا غَبِثَ عَنْهُ يَوْمًا، وَتَشَرَّفَ عَلَى أَوْلَئِكَ الصَّبِيَّانِ، وَتَلَقَّنَهُمَا مِمَّا حَفِظْتَ.

أَحْسَتِ الْأُمُّ بِأَنَّ وَلَدَهَا مُحَمَّدًا سَوْفَ يَكُونُ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ إِذَا مَا سَلَكَ طَرِيقَ الْعِلْمِ حَتَّى نَهَايَتِهِ وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْفَظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَامِلًا وَهُوَ فِي سِنِّ السَّابِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ فَقَرَّرَتْ أَنْ تُكْمِلَ الْمَسِيرَ، وَتَدْفَعَ بِهِ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي



كَانَ حِينَئِذٍ قَلْعَةٌ بِأَسَقَةٍ مِنْ قِلَاعِ الْعِلْمِ، فَدَخَلَ «الشَّافِعِيُّ» الْمَسْجِدَ، وَبَدَأَ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ، وَلَمْ يَكَدْ يَجِدُ ثَمَنَ مَا يَشْتَرِي بِهِ الْوَرَقَ لِيُدَوِّنَ عَلَيْهِ دُرُوسَهُ، فَعَمِدَ إِلَى جَمْعِ جُلُودِ الْحَيَوَانَاتِ، وَعِظَامِ أَكْتَافِ الْإِبِلِ، وَسَعَفِ النَّخِيلِ، وَأَخَذَ يُدَوِّنُ عَلَيْهَا أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

أَدْرَكَ «الشَّافِعِيُّ» أَنَّهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى مِنْ نَبْعِهَا الصَّافِي وَمَوْرِدِهَا الْعَذْبِ؛ حَتَّى يَفْهَمَ مَا حَفِظَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَمَادَرَسَ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَهَبَ إِلَى الْبَادِيَةِ وَلَازِمَ قَبِيلَةَ «هُذَيْلٍ» وَكَانَتْ مِنْ أَفْصَحِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَخَذَ يَرْحَلُ بِرَحِيلِهِمْ، وَيَنْزِلُ بِنُزُولِهِمْ، وَتَكْبَدُ مَشَقَّةَ السَّفَرِ، وَخُسُوفَةَ الْعَيْشِ سِنِينَ عَدِيدَةً، حَتَّى تَعَلَّمَ فَصِيحَ كَلَامِهِمْ وَحَفِظَ كَثِيرًا مِنْ أَشْعَارِهِمْ، فَبَلَغَ مَبْلَغًا عَظِيمًا مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَطَلَاقَةِ اللِّسَانِ.

وَلَمْ يَتْرُكِ «الشَّافِعِيُّ» فُرْصَةَ وُجُودِهِ بَيْنَ أَهْلِ «هُذَيْلٍ» تَفَوُّتُ دُونَ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُمْ الْفُرُوسِيَّةَ وَالرَّمْيَ، وَكَانَ هَدَفُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ

يُعِدَّ نَفْسَهُ لِلْجِهَادِ وَالْمُرَابَطَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَصْبَحَ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ فَارِسًا شَجَاعًا، وَرَآمِيًا مَاهِرًا لَا يُخْطِئُ هَدَفَهُ، وَبَلَغَ مِنَ الْمَهَارَةِ وَالِاتِّقَانِ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُ كَانَ يُصَوِّبُ عَلَى الْهَدَفِ الْوَاحِدِ عَشْرَةَ سِهَامٍ فَيُصِيبُهَا جَمِيعًا دُونَ أَنْ يُخْطِئَ سَهْمًا وَاحِدًا.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالسَّنُونَ، وَعَادَ «الشَّافِعِيُّ» إِلَى بَلَدِهِ الْحَبِيبِ «مَكَّةَ» وَهُوَ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ حَنِينًا جَارِفًا وَشَوْقًا كَبِيرًا إِلَى كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ تَرَابِهَا



الطَّاهِرِ، وَرِيحَهَا الطَّيِّبِ الْعَطْرِ، وَمَا كَادَ «الشَّافِعِيُّ» يَنَالُ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ حَتَّى انْطَلَقَ يُكْمِلُ مَسِيرَهُ فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ مَدْفُوعًا بِحُبِّهِ الْفِطْرِيِّ لِهَذَا الطَّرِيقِ، وَبِشَّجَاعِ أُمِّهِ، فَذَهَبَ يَطْلُبُ الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ عَلَى مُحَدَّثِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ «سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ»، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى دِرَاسَةِ الْفِقْهِ عَلَى مُفْتَى «مَكَّةَ» وَشَيْخِ الْحَرَمِ الشَّرِيفِ «مُسْلِمِ بْنِ خَالِدِ الزُّبَيْجِيِّ»، فَبَرَزَ «الشَّافِعِيُّ» مُفَسِّرًا بَارِعًا، وَمُحَدِّثًا ثِقَةً، وَفَقِيهًا نَابِغَةً، حَتَّى أُذِنَ لَهُ أَسْتَاذُهُ وَمُعَلِّمُهُ «مُسْلِمُ بْنُ خَالِدٍ» بِالْفُتْيَا وَهُوَ ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً، فَقَالَ لَهُ:

- «أَفْتِ يَا مُحَمَّدُ فَقَدْ آنَ لَكَ - وَاللَّهِ - أَنْ تُفْتِيَ».

وَكَانَ شَيْخُهُ «سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ» إِذَا جَاءَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّفْسِيرِ أَوْ الْفُتْيَا التَّفَتَّ إِلَى الشَّافِعِيِّ وَقَالَ: «سَلُّوا هَذَا الْغُلَامَ».

وَكَانَ يُمَكِّنُ لِلشَّافِعِيِّ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَكَانَةِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مَنْزِلَةَ الْإِفْتَاءِ، لَكِنْ شَغَفَهُ الْكِبَرُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَظَمَأَهُ إِلَى الْمَزِيدِ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ يَقِفُ بِهِ عِنْدَ حَدٍّ، فَقَدْ وَصَلَ إِلَى مَسَامِعِهِ خَيْرُ إِمَامٍ «الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ» «مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ» فَسَمَتَ هِمَّتَهُ الْعَالِيَةَ إِلَى الذَّهَابِ إِلَيْهِ، وَالتَّلَمُّذِ عَلَى يَدَيْهِ، لَكِنْ لَمْ يَرِدْ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى «الْمَدِينَةِ» وَهُوَ خَالِي الْوَفَاضِ مِنْ عِلْمٍ «مَالِكٍ» فَاسْتَعَارَ كِتَابَ «الْمَوْطَأِ» مِنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ «مَكَّةَ»، وَحَفِظَهُ فِي تِسْعِ لَيَالٍ فَقَطَّ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ ذَهَبَ إِلَى وَالِي «مَكَّةَ»، وَأَخَذَ مِنْهُ رِسَالَةً إِلَى وَالِي «الْمَدِينَةِ» لِيُرْكَيَهُ عِنْدَ الْإِمَامِ «مَالِكٍ».

تَوَجَّهَ «الشَّافِعِيُّ» إِلَى بَيْتِ الْإِمَامِ «مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ» فِي صُحْبَةِ وَالِي «الْمَدِينَةِ»، وَكَانَ «الشَّافِعِيُّ» حِينَئِذٍ لَا يَتَجَاوَزُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، فَأَخَذَ الْإِمَامُ «مَالِكُ» يَنْظُرُ طَوِيلًا إِلَى ذَلِكَ الْفَتَى الطَّوِيلِ الْأَسْمَرِ وَهُوَ يَحْكِي قِصَّتَهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِشَجَاعَةٍ وَفَصَاحَةٍ، وَكَانَتْ لِلْإِمَامِ فِرَاسَةٌ عَجِيبَةٌ، وَبَصِيرَةٌ نَافِذَةٌ، فَقَالَ لَهُ:

- يَا بُنَيَّ إِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ لَكَ شَأْنٌ عَظِيمٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَإِذَا مَا جَاءَ الْغَدَ تَحَضَّرْ إِلَيَّ، وَتَأْتِي مَعَكَ بِمَنْ يَقْرَأُ لَكَ كِتَابَ «الْمَوْطَأِ» فَإِنِّي أَخْشَى أَلَّا تُحَسِّنَ قِرَاءَتَهُ، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: بَلْ أَنَا أَقْرُؤُهُ عَلَيْكَ حِفْظًا دُونَ كِتَابٍ يَا إِمَامُ.

وَذَهَبَ «الشَّافِعِيُّ» إِلَى شَيْخِهِ، وَأَخَذَ يَقْرَأُ الْكِتَابَ عَلَيْهِ، فَأَعْجَبَ الْإِمَامُ بِقِرَاءَتِهِ، وَكَانَ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ

الْقِرَاءَةُ كَانَ الْإِمَامُ يَقُولُ لَهُ : بِاللهِ يَا فَتَى زِدْ، حَتَّى قَرَأَ «الشَّافِعِيُّ» الْكِتَابَ كَامِلًا فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ .
ظَلَّ «الشَّافِعِيُّ» مُلَازِمًا لِشَيْخِهِ «مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ» زَمَنًا طَوِيلًا يَنْهَلُ مِنْ عِلْمِهِ، حَتَّى تُوَفِّيَ الْإِمَامُ عَامَ (١٧٩) هِجْرِيَّةً،
وَكَانَ «الشَّافِعِيُّ» سَاعَتَهَا شَابًا يَافِعًا يَبْلُغُ مِنَ الْعُمَرِ تِسْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَلَمْ يَدَعْ «الشَّافِعِيُّ» طَوَالَ هَذِهِ الْمُدَّةِ عَالِمًا
مِنْ عُلَمَاءِ «الْمَدِينَةِ» إِلَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ وَأَخَذَ عَنْهُ الْعِلْمَ حَتَّى جَمَعَ عِلْمَ «الْحِجَازِ» كُلَّهُ .

جَلَسَ «الشَّافِعِيُّ» يَوْمًا مَعَ أَصْدِقَائِهِ مَهْمُومًا حَزِينًا، بَعْدَ أَنْ ضَاقَتْ بِهِ سَبِيلُ الْعَيْشِ، وَكَلَّتْ نَفْسُهُ عَن أَنْ يَجِدَ
عَمَلًا يَتَكَسَّبُ مِنْهُ مَا يُنْفِقُ بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَكَانَ وَالِي الْيَمَنِ «حَمَادُ بْنُ الْبَرَبَرِيِّ» قَدْ قَدِمَ «مَكَّةَ» فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ، فَهَرَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَحِبَّاءِ «الشَّافِعِيِّ» وَأَقْرَبَاؤُهُ، وَطَلَبُوا مِنَ الْوَالِي أَنْ يَصْحَبَ «الشَّافِعِيَّ» مَعَهُ إِلَى «الْيَمَنِ»،
وَيُسَنِّدَ إِلَيْهِ أَى عَمَلٍ يَتَكَسَّبُ مِنْهُ، فَرحَّبَ الْوَالِي بِهِ كَثِيرًا، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُجَهِّزَ نَفْسَهُ لِلسَّفَرِ فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ .
سَافَرَ «الشَّافِعِيُّ» إِلَى مَدِينَةِ «نَجْرَانَ» بِالْيَمَنِ، وَهُنَاكَ أَسْنَدَ إِلَيْهِ الْوَالِي مُهِمَّةَ الْقَضَاءِ، فَقَامَ «الشَّافِعِيُّ» بِهَا بِنَجَاحٍ
وَأَقْتِدَارٍ، وَأَمَانَةٍ وَعَدَلٍ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ، وَحَمَدُوا لَهُ صَنِيعَهُ وَتَقَوَاهُ وَوَرَعَهُ .

وَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ ذَوِي النُّفُوزِ وَالسُّلْطَانِ التَّوَدُّدَ إِلَى «الشَّافِعِيِّ» لِتَحْقِيقِ بَعْضِ مَصَالِحِهِمْ عَلَى حِسَابِ أَهْلِ «نَجْرَانَ»
كَمَا اعتَادُوا أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ مَعَ كُلِّ مَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُفْلِحُوا وَلَمْ يَجِدُوا فِي نَفْسِ
«الشَّافِعِيِّ» الطَّاهِرَةَ اسْتِجَابَةً لِأَغْرَائِهِمْ، بَلْ وَجَدُوهُ يَتَّجِهُ بِكُلِّ قُوَّةٍ نَحْوَ إِقَامَةِ الْعَدْلِ وَنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ،
فَاجْتَمَعَ الظَّالِمُونَ أَمْرَهُمْ، وَأَرْسَلُوا إِلَى «هَارُونَ الرَّشِيدِ» خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ يَتَّهِمُونَ «الشَّافِعِيَّ» وَجَمَاعَةً مَعَهُ بِالتَّأَمُّرِ
عَلَى الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، فَغَضِبَ الْخَلِيفَةُ، وَأَرْسَلَ فِي طَلَبِهِمْ جَمِيعًا وَهُمْ مُكْبَلُونَ فِي أَغْلَالِهِمْ، وَحُمِلَ «الشَّافِعِيُّ»
إِلَى «بَغْدَادَ» عَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ سَنَةَ (١٨٤) هِجْرِيَّةً، وَأَمْرٌ لَا يَتْرُكُهَا حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ الْخَلِيفَةُ بِالْمَثُولِ أَمَامَهُ
وَالنَّظَرِ فِي أَمْرِهِ، فَاسْتَغْلَّ «الشَّافِعِيُّ» فُرْصَةَ وُجُودِهِ فِي «بَغْدَادَ»، وَأَنْطَلَقَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ، وَكَانَ مَعَهُ حِينَئِذٍ سِتُونِ دِينَارًا
أَنْفَقَهَا عَلَى كِتَابَةِ كُتُبٍ «مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ» فَقِيهِ الْعِرَاقِ الْجَلِيلِ .

وَيَفْضِلُ صِدْقَهُ وَصَبْرَهُ وَرِبَاطَةَ جَأْشِهِ، فَرَجَّ اللَّهُ عَنْهُ مِحْنَتَهُ، وَأَبْرَأَ سَاحَتَهُ، وَأَلْفَ قَلْبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ، حَتَّى أَنَّهُ أَمَرَ لَهُ بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ مُكَافَأَةً، وَزَادَهُ أَحَدُ قَوَادِ الْخَلِيفَةِ خَمْسِمِائَةَ دِينَارٍ أُخْرَى، فَقَالَ «الشَّافِعِيُّ» بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ:

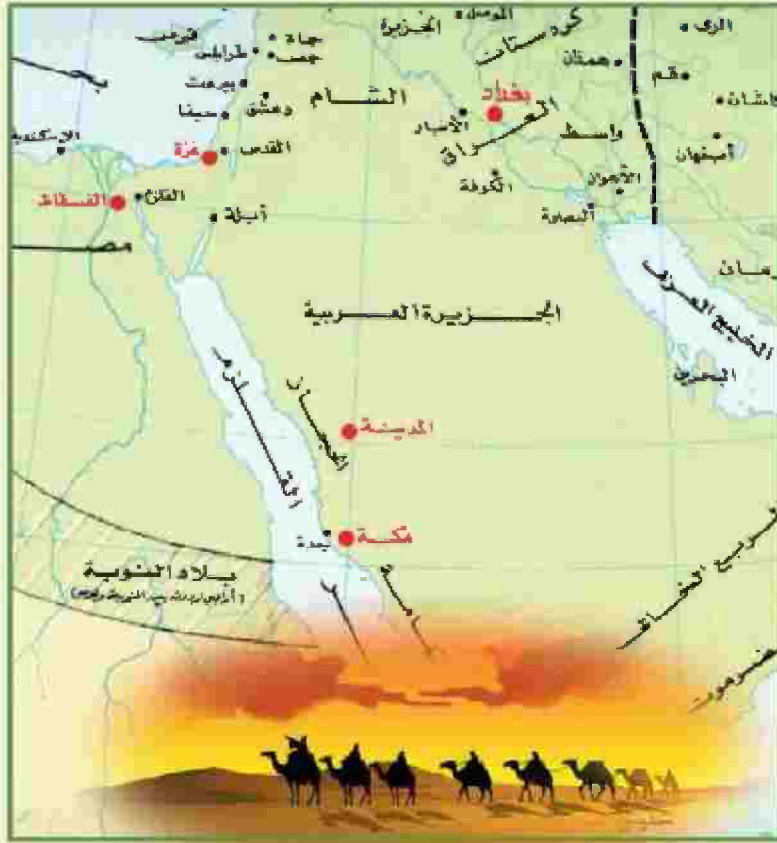
- وَاللَّهِ مَا مَلَكَتْ فِي يَدِي أَلْفَ دِينَارٍ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ!ۙ

وَبَعْدَ الْمِحْنَةِ أَقَامَ «الشَّافِعِيُّ» مُدَّةً فِي «بَغْدَادَ» تَلْمِيزًا لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، وَغَيْرِهِ مِنْ فُقَهَاءِ «بَغْدَادَ» الْعِضَامِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى «مَكَّةَ»، وَهُوَ يَحْمِلُ مَعَهُ حِمْلَ بَعِيرٍ مِمَّا دُونَهُ مِنْ عِلْمِ أَهْلِ «الْعِرَاقِ».

وَفِي فَنَاءِ «زَمَزَمَ»، وَإِلَى جِوَارِ مَقَامِ «إِبْرَاهِيمَ» - عَلَيْهِ السَّلَامُ - جَلَسَ «مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ» يُعَلِّمُ النَّاسَ، فَالْتَفَّ حَوْلَهُ طُلَّابُ الْعِلْمِ مِنْ كُلِّ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَقَصَدَهُ كِبَارُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ الْعِلْمَ، وَيَسْتَمِعُوا مِنْهُ إِلَى أُصُولِ وَقَوَاعِدَ فِي فَهْمِ وَاسْتِنبَاطِ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ بِسَمَاعِهَا بِهَذَا التَّرْتِيبِ مِنْ قَبْلُ، فَأَخَذَ بِعُقُولِهِمْ، وَبَهَّرَ أَسْمَاعَهُمْ، وَشَهِدُوا لَهُ جَمِيعًا بِالتَّفُوقِ وَالرِّيَادَةِ وَالْفَهْمِ وَسَعَةِ الْعَقْلِ، حَتَّى قَالَ عَنْهُ «أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ» (أَحَدُ الْأَثَمَةِ الْأَرْبَعَةِ بَعْدَئِذٍ) حِينَ زَارَ مَكَّةَ حَاجًّا وَجَلَسَ فِي حَلْقَةِ «الشَّافِعِيِّ» دُونَ مَا سِوَاهَا لِيَأْخُذَ عَنْهُ الْعِلْمُ:

- مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَفْقَهَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ «مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ» ۙ وَمَا هِيَ إِلَّا فِتْرَةٌ قَصِيرَةٌ حَتَّى أَصْبَحَتْ حَلْقَةً





«الشَّافِعِيُّ» مِنْ أَكْبَرِ حَلَقَاتِ الْعِلْمِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بَلْ إِنَّ شَهْرَتَهَا جَاوَزَتْ حُدُودَ «مَكَّةَ» وَبَلَغَتْ «الْعِرَاقَ» إِلَى حَدِّ دَعَا أَحَدَ عُلَمَائِهِ الْكِبَارِ وَهُوَ «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ» أَنْ يَكْتُبَ إِلَى «الشَّافِعِيِّ» رِسَالَةً يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَضَعَ كِتَابًا فِي أُدْلَةِ التَّشْرِيعِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي يَتَّبَنِي عَلَيْهَا الْفَقْهُ، فَأَلَّفَ لَهُ «الشَّافِعِيُّ» كِتَابَ «الرِّسَالَةِ» الَّذِي يُعَدُّ أَوَّلَ كِتَابٍ وُضِعَ فِي عِلْمِ «أُصُولِ الْفِقْهِ» ذَلِكَ الْعِلْمُ الَّذِي نَظَّمَ قَوَاعِدَهُ وَصَاغَ مَسَائِلَهُ وَجَمَعَ شَتَاتِ أَبْوَابِهِ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ. وَمَعَ نَسَمَاتِ صَبَاحِ أَحَدِ أَيَّامِ سَنَةِ (١٩٥) هِجْرِيَّةٍ كَانَ الْإِمَامُ «الشَّافِعِيُّ» فِي طَرِيقِهِ إِلَى رِحْلَةٍ ثَانِيَةٍ إِلَى «بَغْدَادَ»، وَلَكِنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ يَذْهَبُ إِلَيْهَا كَعَالِمٍ فَقِيهٍ رَاسِخٍ فِي الْعِلْمِ ذُو شُهْرَةٍ وَاسِعَةٍ.

عَقَدَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ مَجْلِسَهُ فِي الْجَامِعِ الْغَرْبِيِّ بِبَغْدَادَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ وَالْفُقَهَاءُ وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ، وَيَتَفَقَّهُونَ بِفِقْهِهِ، وَيَأْخُذُونَ عَنْهُ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَكَيْفِيَّةِ اسْتِنبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْهُمَا، فَعَرَفَ الْعُلَمَاءُ لَهُ قُدْرَهُ، وَشَهِدُوا لَهُ جَمِيعًا بِالْفَضْلِ. حَتَّى قَالَ «أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ» تَلَمِذُ «الشَّافِعِيِّ» النَّجِيبُ :
- «مَا أَحَدٌ مَسَّ بِيَدِهِ مَحَبْرَةٌ وَلَا قَلَمًا، إِلَّا وَلِلشَّافِعِيِّ فِي رَقَبَتِهِ مِنَّةٌ، وَلَوْ لَا الشَّافِعِيُّ مَا عَرَفْنَا فِقْهَ الْحَدِيثِ».

وَوَظَّلَ «الشَّافِعِيُّ» طَوَالَ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ عَلَى أَرْضِ «العِرَاقِ» يُدَرِّسُ وَيُفْتِي وَيُعَلِّمُ، فَتَتَلَمَّذَ عَلَى يَدَيْهِ الْكَثِيرُ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَقَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الْإِمَامُ عَنْ أَرْضِ «العِرَاقِ» كَانَ قَدْ انْتَهَى مِنْ تَأْلِيفِ كِتَابِهِ الضَّخْمِ الْمَعْرُوفِ بِاسْمِ «الحُجَّةِ» وَفِيهِ وَضَعَ الْإِمَامُ خُلَاصَةَ مَذْهَبِهِ الْفَقْهِيَّ الْجَدِيدِ .

وَفِي أَوَاخِرِ سَنَةِ (١٩٩) هِجْرِيَّةٍ وَلَّى الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ «الْمَأْمُونُ» «الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ» وَلِأَيَّةٍ «مِصْرَ»، وَكَانَ «الْعَبَّاسُ» يَرْغَبُ فِي أَنْ يَصْحَبَ مَعَهُ «الشَّافِعِيُّ» لِإِفْيِيدَ مِنْ عِلْمِهِ أَهْلَ «مِصْرَ» فَوَافَقَ الْإِمَامُ، وَسَافَرَ مَعَهُ، وَبَدَأَ يَنْشُرُ عِلْمَهُ وَفِقْهَهُ بَيْنَ أَهْلِ «مِصْرَ» فَمَا لَبِثَ أَنْ أَحَبَّهُ النَّاسُ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الطُّلَّابُ مِنْ كُلِّ أَقْطَارِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ .

وَكَانَتْ حَلَقَةُ الْإِمَامِ فِي جَامِعِ «عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ» الَّتِي كَانَ بِمَثَابَةِ الْجَامِعَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَمُلْتَقَى لِلْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ، فَكَانَ «الشَّافِعِيُّ» يَجْلِسُ فِي الْمَسْجِدِ يُدَرِّسُ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْفَجْرِ حَتَّى مُنْتَصَفِ النَّهَارِ، يَبْدَأُ بِعُلُومِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عُلُومِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ، ثُمَّ يَنْتَهِي الدَّرْسُ بِعُلُومِ اللُّغَةِ، وَاسْتِطَاعَ الْإِمَامُ خِلَالَ مَدَّةٍ قَلِيلَةٍ أَنْ يَأْخُذَ بِعِلْمِهِ وَفَصَاحَتِهِ عُقُولَ النَّاسِ كَمَا اسْتِطَاعَ أَنْ يَمْلِكَ بِزُهْدِهِ وَوَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ وَكَرَمِهِ قُلُوبَهُمْ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كِبَرِ سِنِّهِ وَضَعْفِ قُوَّتِهِ، بَعْدَ أَنْ تَجَاوَزَ الْخَمْسِينَ مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَذْهَبُ إِلَى تَغْرِ الْإِسْكََنْدَرِيَّةِ يَحْرُسُ عَلَى أَحَدِ مَوَاقِعِهَا لِعِدَّةِ لَيَالٍ لِيُنَالَ شَرَفَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

مَرِضَ الْإِمَامُ «الشَّافِعِيُّ» فِي آخِرِ حَيَاتِهِ بِالْبَوَاسِيرِ وَوَظَّلَ هَذَا الْمَرَضُ مُلَازِمًا لَهُ طَوَالَ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّ الدَّمَّ كَانَ يَنْزِلُ مِنْهُ وَهُوَ رَاكِبٌ فَرَسَهُ



فِي طَرِيقِهِ إِلَى مُحَاضَرَةٍ أَوْ دَرَسٍ فَيَمْلَأُ ثَوْبَهُ وَنَعْلَهُ، فَمَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ مُوَاصَلَةِ سَيَرِهِ.
وَكَانَ يَمْكُثُ السَّاعَاتِ الطُّوَالَ فِي بَيْتِهِ مُتَحَامِلًا عَلَى نَفْسِهِ وَالِدَمُّ يَنْزِلُ مِنْهُ فِي طِسْتٍ، وَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ
أَنْ يَكْتُبَ وَيُؤَلِّفَ وَيُنَقِّحَ مَا كَانَ قَدْ كَتَبَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، كَكِتَابِ «الرَّسَالَةِ» الَّذِي أَلْفَهُ «بِمَكَّةَ» وَأَعَادَ النَّظَرَ فِيهِ بِمِصْرَ، وَكَكِتَابِ
«الْحُجَّةِ» الَّذِي أَلْفَهُ بِالْعِرَاقِ وَأَعَادَ النَّظَرَ فِيهِ أَيْضًا، ثُمَّ سَمَّاهُ بَعْدَ تَعْدِيلِهِ كِتَابَ «الْأُمِّ»، وَظَلَّ الْإِمَامُ عَلَى دَائِهِ وَنَشَاطِهِ
حَتَّى أَقْعَدَهُ الْمَرَضُ، وَانْقَطَعَ عَنِ الدَّرْسِ فَكَانَ تَلَامِيذُهُ يَزُورُونَهُ فِي بَيْتِهِ وَيَوَاسُونَهُ فِي مَرَضِهِ.
دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا أَحَدُ تَلَامِيذِهِ فَقَالَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا إِمَامُ؟

فَقَالَ الْإِمَامُ :

- «أَصْبَحْتُ عَنِ الدُّنْيَا رَاحِلًا، وَلِلْإِخْوَانِ مُفَارِقًا، وَلِكَاسِ الْمَنِيَّةِ شَارِبًا، وَعَلَى اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ وَارِدًا، وَاللَّهُ مَا أَدْرَى رُوحِي
تَصِيرُ إِلَى الْجَنَّةِ فَأَهْنِئْهَا، أَوْ إِلَى النَّارِ فَأُعْزِيْهَا» !!! ثُمَّ بَكَى الْإِمَامُ، وَقَالَ مُنَاجِيًا غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ سُبْحَانَهُ:

فَلَمَّا فَسَى قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي	جَعَلْتُ الرَّجَا مِنْ لِعَفْوِكَ سُلَّمًا
تَعَازَمَنِي ذُنُوبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ	بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
وَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ	تَجُودُ وَتَعْفُو مِنِّي وَتَكْرُمَا

ثُمَّ صَعِدَتْ رُوحُ الْإِمَامِ الطَّاهِرَةِ إِلَى بَارِئِهَا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، آخِرَ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ «رَجَبٍ» سَنَةِ (٢٠٤هـ) وَحُمِلَ جُثْمَانُهُ
الطَّاهِرُ عَلَى الْأَعْنَاقِ إِلَى مَثْوَاهُ الْأَخِيرِ بِمَقْبَرَةِ الْقُرَشِيِّينَ بَيْنَ قُبُورِ بَنِي عَبْدِ الْحَكَمِ بِمِصْرَ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ صَلَاةِ
العَصْرِ، فَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامَ وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ.

الشافعي في سطور

• **اسمه ونسبه:** هو «أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف»، وأول من أسلم من أجداد الشافعي الصحابي الجليل السائب بن عبيد رضي الله عنه.

• **أبوه:** «إدريس بن العباس» كان رجلاً فقيراً هاجر من «مكة» إلى «غزة» و«عسقلان» بحثاً عن الرزق فمات هناك.

• **أمه:** كانت أمه من قبيلة «الأزد»، وكانت من العابدات القانتات، المتفقيات في الدين.

• **زوجته:** «حميدة بنت نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان - رضي الله عنه.

• **أولاده:** «محمد» وكنيته «أبو عثمان»، و«محمد» وكنيته «أبو الحسن»، و«زينب»، وقيل إن له بنتاً أخرى تسمى «فاطمة».

• **مولده ووفاته:** ولد «الشافعي» يوم «الجمعة» آخر يوم من شهر «رجب» سنة (١٥٠هـ = ٧٦٧م) بغزة في «فلسطين»، ثم حملته أمه إلى «عسقلان» ثم إلى «مكة». وتوفي أيضاً في آخر ليلة من شهر رجب سنة (٢٠٤هـ = ٨٢٠م) ودفن عصر يوم الجمعة في مقابر القرشيين بمصر.

• **صفاته الجسمية:** كان «الشافعي» طويلاً، معتدلاً القامة، نحيف الجسم، جميل الوجه، لوثة يميل إلى السمرة.

• **مكانته وألقابه العلمية:** ناصر السنة، فقيه السنة الأكبر، مجدد القرن الثاني الهجري، وأضع علم أصول الفقه.

• **عصره:** النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (١٥٠ - ٢٠٤هـ / ٧٦٧ - ٨٢٠م)، وكان العالم الإسلامي تحت حكم الخلافة العباسية.

• **شيوخه:** «مالك بن أنس» و«عمرو بن سلمة» و«يحيى بن حسان» و«محمد بن الحسن» و«الفضيل بن عياض» و«سفيان بن عيينة» و«مسلم بن خالد الزنجي» و«سعيد بن سالم القداح» و«وكيع بن الجراح»... وغيرهم.

• **تلاميذه:** «أحمد بن حنبل» و«أبو ثور الكلبى» و«الزعفراني» و«أبو عبد الرحمن الأشعري»، و«أبو علي الكرايسي»، و«أبو يعقوب البويطي»... وغيرهم.

• **كتبه:** ألف الشافعي كتاباً كثيرة العدد نفيسة المحتوى منها: «الأم»، و«الرسالة»، و«اختلاف الحديث»، و«المسند»، و«فضائل قریش».

• **شعره:** للإمام «الشافعي» منزلة كبيرة في كتابة الشعر وروايته، وقد جمعت أشعاره في ديوان صغير باسمه.